يعالج المشكلة ليس من وجهة نظر وطنية صرفة ولكن من وجهة نظر عربية شاملة : ليس علينا ان نؤكد بأن العرب ، سواء كانوا فلسطينيين ام لا ، لا يخامرهم اي شك او ريبة في اليهود . لقد كان الشرق العربي دائما معروفا بضيافته وكرمه . ان اليهود يشكلون اقلية صغيرة ، فقد عاشوا مع اخوانهم من المسيحيين والمسلمين في سلام ووفاق ، ولم يضطهدوا كما اضطهدوا في اوروبه (١٨). ان المواضيع التي رأيناها في الفقرات السابقة ليست الا جزءا من رأي الافتتاحيات . ان النسبة العظمى من الافتتاحيات كرست للمسألة الفلسطينية ، وكانت تتركز حول مستقبل فلسطين والدعوة القومية للدفاع عن فلسطين العربية ، ويمكن ان تلخص كما يلي : « رفض التقسيم ، طرد الارهابيين ، وقف الهجرة اليهودية ، حل منظمة الهاغاناه ، انهاء الانتداب البريطاني ، اعلان استقلال فلسطين الفوري ، خلق دولة عربية — يهودية في فلسطين حيث يتساوى جميع السكان في الحقوق والواجبات »(٢٩).

ولكي يتم تنفيذ هذه الخطة في سبيل فلسطين نصح العرب بالدفاع عن فلسطين وهزم الصهيونية . وعندما قارب الانتداب البريطاني على الانتهاء ، اظهر كتاب الافتتاحيات العرب اجماعا في الدعوة الى الحل العسكري . فقد صدرت جريدة (القبس) في ١٦ أيار ١٩٤٨ تحمل عنوانا بارزا تقول فيه ان عهد الكلام والكتابة قد انتهى ، وبدأ عهد الدم والشجاعة . وهذا تعبير عن رأي الافتتاحيات العربية بالضبط .

وهنا يستحسن ان نعرف كيف نظرت الدول الاربع المحيطة بفلسطين الى الصراع الناشب في فلسطين. فعلى العموم ، كان كتاب الافتتاحيات السوريون يتميزون بعاطفيتهم امام قرائهم . فقد حاول السوريون ان يستعيدوا امجاد صلاح الدين في محاولة منهم لجعل الشعب السوري يتهيأ للحرب(٣٠). لقد كانوا متلهفين لبدء المعركة ولا يرغبون في انتظار الانسحاب النهائي للجيوش البريطانية كما كان مقررا في منتصف أيار . وفي الواقع ، ان العديد من الصحف السورية قد أيدت قطع رأس الامعى قبل ان تكبر(٣١). وقد عزز هذا الموقف الاعتقاد بأن القوة كانت ولا زالت وستبقى الى الابد المنطق العملي الوحيد الذي يؤكد حقوقه في هذا العالم(٣٢). لذلك فقد كان على القارىء السوري ، تحت تأثير الافتتاحيات المحلية ، ان يندفع لقتال الصهاينة في فلسطين ويدرك بأن القوة تهزم الحق في هذا العالم . واذا لم يفعل ذلك هو ورفاقه ، ففي المستقبل سيبكون كالنساء على وطن لم يستطيعوا ان يحافظوا عليه كالرجال(٣٣). وقد رافق هذا النصح والحض تحذير من صعوبة الطريق والقتال اذ ان العدو قوي ومنظم ومدعوم بقوى خارجية مهمة(٣٤).

اما بالنسبة للبنانيين ، فقد كانت لديهم قناعة بأنهم من الناحية العسكرية اضعف الدول الاربع التي لها حدود مجاورة مع فلسطين . ولذلك ، فان الافتتاحيات في دعوتها لتحرير فلسطين من الصهاينة لم تكن تفتقر للوطنية بقدر ما كانت مدركة وواعية للاخطار التي تهدد لبنان من جراء نشوء دولة اسرائيلية عسكرية قوية على الحدود الجنوبية : « اسرائيل تقف على ابوابنا وتضطرنا ان نأخذ بعين الاعتبار كل مظاهر ونتائج هذا القرب . انها ليست لعبة عندما يحاول بلد صغير ان يصطنع الاخطار لكي يعرف وزنه . ان ترنيمة داود التي ينشدها العبرانيون تتزدد في انحاء الشرق كله . ان ثقل اسرائيل وقوتها العظيمة تبدو ثقلا شديدا ومحملا بالاخطار للدول ذات الموارد المحدودة »(٣٥).

وفي مقابل الموقف المحدود والضيق للصحافة اللبنانية كانت افتتاحيات الصحف المصرية ذات نظرة تدل على خبرة ومعرفة بالعالم والناس . لقد رأت ان ما يجري في فلسطين لا يعكس معركة محدودة بين مجموعة من العرب ومجموعة من الصهاينة ، بقدر ما يعكس معركة ذات مستوى ابعد من ذلك. انها صراع بين الامة العربية في ولادتها الجديدة وبين العالم الغربي وبقايا الاستعمار ومخلفاته . وهذا الموقف في بعض جوانبه ناتج عن بعد المسافة النسبية بين القاهرة وتل ابيب اذا ما قورنت بالمسافة التي تفصل الشام وعمان وبيروت عن تل ابيب . ولربما كان السبب المنطقي والممكن لهذه النظرة المصرية والبعيدة لمشكلة فلسطين هي انشغال مصر في حروبها مع قوات الاحتلال البريطاني فيها . والنتيجة الطبيعية لهذا هي دمج اسباب الاحتلال البريطاني لمصر مع الاسباب التي ادت لظهور الصهيونية في فلسطين . لقد دعت الصحافة المصرية لقتال الصهاينة في فلسطين ، ولكنها كانت دعوة باردة وكانت تنظر الى قضية فلسطين على ضوء الاحتلال البريطاني لمصر . لذلك فان الصحافة المصرية رسمت خطا موازيا بين قضية فلسطين